الجزء الأول

عمارة الأرض

الإنسان

العبادة والعمارة

الإنسان مكلف بعمارة الأرض

عمارة الأرض أصدق سجل للحياة

إعمار الأرض يكفل إنماء المجتمع

الدين والعلم والفن

الحياة والكائنات والعمران

مصنوعات الإنسان

obeikandl.com

obeikandl.com

الإنسان:

الإنسان هو قضية القضايا في هذا الوجود... وهو سيد في هذا الكون.

لقد أمد الله الإنسان بسلطان الحس والعقل وبإمكانية البحث العلمي.

وسخر له ما في السماوات وما في الأرض. ودعاه إلى كشف أسرار الوجود.

وكل شيء في الوجود مسخر له. وهو الكائن الوحيد – في الكون كله – الذي نفخ الله فيه من روحه. وقد كانت النفخة الروحية هي مناط التكليف والتكريم الذي حظي به. والديانات كلها جاءت من أجله.

- كل ما في القرآن الكريم إما حديث عن الإنسان. وإما حديث إلى الإنسان. ومنهج القرآن في هذا الحديث يتمثل في استجاشة الإنسان وحثه على النظر والتفكر والتدبر والتأمل في الآفاق وما بها من عظمة وسعة وتعدد والأنفس وما بها من حياة وحكمة ودقة وتوازن وانسجام وحس وفهم.

فلنبدأ بتدبر آيات الإنسان في القرآن... وهي خمس وستون آية. جاء فيها جميعًا معرفًا بحرف "ال" لعموم الجنس.

الإنسان إنس – بإنسيته غير المتوحشة – مقابل الجن في (الرحمن -14) و(الحجر -26) وبهذا الملحظ المشترك من إنسية الإنسان والإنس يصدق عليهما القول بأن الإنسان مدني بطبعه.ويدخلان معاً في عموم لفظ "الناس" على اختلاف الأجناس والشعوب والطبقات. وأظهر ما يكون هذا العموم في (النساء -1) "يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء..." وفي (الحجرات -13) " يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم...".

والناس "بشر" لا يتفاضلون فيما هو من بشريتهم الآدمية.

بل هم فيها سواء على وجه المماثلة لكل البشر. وفي القرآن الكريم ست وعشرون آية في "البشر" تأخذ موضعها في التاريخ الديني بدءاً من آية آدم عليه السلام – سواه الله بشراً – وأمر الملائكة أن يسجدوا له. فكان في ذلك أعظم تكريم من الله تعالى للإنسان.

إن تساؤل الملائكة عن سر اختيار آدم للخلافة في الأرض... وتعليم آدم الأسماء كلها – وإخبار آدم لهم بما يعرفه ولا يعرفونه – وإدراك الملائكة لاختيار آدم. وذريته في عمارة الأرض واستعمارها. هذا كله يجعل الهدف من خلق الإنسان هو: العلم أو المعرفة بمعناها العام.

الإنسان ليس مناط إنسانيته مجرد كونه من الإنس ومن الناس أو من البشر... وإنما الإنسانية فيه أهلته لحمل الأمانة – إذ هو وحده المختص بالتدين – إنه المخلوق الظاهر الذي تميزه العقيدة.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"

وحتى يحقق الإنسان مفهوم العبادة لله وحده في هذا الوجود...

زوده الله سبحانه بالأدوات التي تعينه على ذلك. وخصه بخصائص وميزات دون غيره وفضله بما لم يتوافر لأي كائن غيره.

قال جل من قائل: "إني جاعل في الأرض خليفة" أي أن الله تعالى جعل – الإنسان – خليفة له في الأرض.

لقد كرم الله الإنسان وأعلن لنا ذلك في قوله: "ولقد كرمنا بني آدم"

فأهّله لكسب العلم وحده – دون سائر الكائنات – وبما هيأه لذلك سبحانه "علم الإنسان ما لم يعلم".

- الإنسان في رحلته العابرة – بين الحياة والموت – لا تعدو أن تكون في مجملها امتحانًا لإنسانيته – تمحيصاً لإيمانه وعمله ومسعاه – ومجاهدة لنوازع النفس والصبر على مشاق التكليف. وحمل الأمانة الصعبة. يقول الله في قرآنه: "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً" (الأحزاب -72).

وقال العارفون إن الإنسان هو المراد من خلق الكون كله "وليتعرف على وجوه الإتقان والأحكام والقدرة والإعجاز وليدرك بالبراهين العقلية أن هذا الكون العظيم لم تخلقه الصدفة وأن له خالقاً حكيماً عليماً قادراً واحداً ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وأن صفوة الناس هم الأنبياء وصفوة الأنبياء هو خاتمهم "محمد" عليه الصلاة والسلام. فهو النبي الخاتم الذي اجتمعت له مفاتيح المعارف وكنوز الرحمة ومقام الشفاعة وأنوار الهداية. وتميز على الكل بأنه على خلق عظيم فقال له ربنا: "وإنك لعلى خلق عظيم".

وكما انفرد محمد عليه الصلاة والسلام بأنه سيد البشر انفردت مريم بين النساء بأنها أفضل نساء العالمين. كما انفرد كل نبي بمقام... فهذا موسى الكليم وهذا إبراهيم الخليل وهذا عيسى كلمة الله وروح منه.

هذه – في عجالة – هي السمات المجملة للإنسان وموجز رحلته الدنيا كادحًا إلى ربه فملاقيه. أجملتها آيات الوحي منبهة إلى أن: هذا القرآن رسالة إلى الإنسان.

obeikandl.com

الإنسان مزاج فريد ما بين جسم وعقل وعاطفة وروح:

- الإنسان كائن مخلوق له وجود مادي وطبيعة جسمانية وله حواس- قادرة على الحس والتمييز وعلى التأثر بما تتلقاه من مؤثرات خارجية- فالحواس هي الصلة بين الإنسان وبين الوجود الأكبر. وهي طريق الاتصال بين الإنسان وأمثاله من الناس وبين غيره من المخلوقات والكائنات والطبيعة والبيئة. وبالواقع وحقائق الحياة. ومع تعرض الحواس للمؤثرات الخارجية المختلفة – وتدريبها – تصبح فاعلة قادرة على الفعل... كما نكتسب من تدريبها الترابط الحسي الذي هو أساس المهارة والبراعة في أداء العمل والإنتاج والإتقان.

الإنسان بطبيعته "صانع" له أنواع عليا من المهارات وله قدرة على الحركة والتحكم والتناول. وعنده تعطش للعمل – وهذا هو الجانب الإيجابي من وجوده الحسي والمادي – وهو جزء من طبيعته الإنسانية. ومحاولته لإثبات وجوده وممارسة مهاراته في إعمار الأرض.

كما أن لتدريب الحواس ناحية اجتماعية – بتربية وتنمية شخصية الفرد – وتدريب الجماعة على التعاون والتفاهم والزمالة. بخلق مجتمع متكامل متعاون يعتمد على بعضه البعض لدفع حركة الحياة. (هكذا يجمع العارفون).

إن الإنسان يتلقى من البيئة المحيطة به مؤثرات تقع على حواسه المختلفة من سمع وبصر أو لمس أو غيرها من أعضاء الحس. حيث يكون دائماً مؤثراً يقع على حواس الإنسان من الخارج ثم استجابة سلوكية تنبني عليه.

ولا أستطيع أن أحصر لك الصفات الأساسية التي ذكرها العلماء – على اختلاف عصورهم وشعوبهم – ليميزوا بها الإنسان من سائر خلق الله. لعمارة الأرض وفي صنع وجوده الحياة والإبداع.

وربما كان أكثر تلك الصفات شيوعاً صفة العقل... على تفاوت شديد في فهم الناس لكلمة "العقل" هذه – وإن يكن معناها المقصود محدداً – العقل أولاً هو مناط التكريم من الله تعالى للإنسان.

والإنسان – بنص القرآن – هو خليفة الله في أرضه.

والإنسان كائن فريد كرمه الله دون سائر المخلوقات.

والله سبحانه يتجلى في خلق العقل الإنساني.

وهذا العقل وسيلتنا للتدبر في الكون. هذا التدبر الذي نسلكه سبيلاً إلى إدراك عظمة الله وقدرة الخالق – جلت قدرته – ومن ثم الإيمان به مبدعاً لهذا الكون والاعتقاد واليقين بإعجازه بأنه: الواحد الأحد.

أما تاريخ الإنسان – خليفة الله في الأرض – فما هو إلا مسيرة شديدة العناء. تطمح في الحصول على قبس من نور هذا الكمال المطلق... كمال التناغم والتجانس بين الفكر والفعل. ومن اجتماع المعرفة الكلية مع القدرة الكلية. والعقل هو القدرة على التصرف تصرفاً واعياً بما يناسب الدنيا حولنا.

لقد نشأت الحضارة بفضل قدرة الإنسان على استخدام العقل.

- كل ما نراه حولنا من آثار المدنية والتقدم هو ثمرة من ثمرات العقل.

إن عملية النضج العقلي الإنساني مستمرة في الصعود.

وما يزال العقل الإنساني يأتي – كل يوم – بالجديد النافع.

ولا حدود لقدرة الإنسان على الإبداع.

- الإنسان وحده – دون سائر الكائنات – المؤهل لكسب العلم.

الذي يعرف القراءة والقلم والكتابة. إذ هو وحده المميز بالفكر والعقل.

فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي تعلم:

وإذا كان نمو العقل لا يتأتى إلا بالتعليم... فإن التعليم يستحيل بلا تنمية شاملة متكاملة لقدرات الإنسان. ولكافة الطاقات الإنسانية الجسمانية والفكرية والعاطفية والروحية معاً. كما لا يمكن أن يوجد تعليم – من منظور إنمائي – يغفل احتياجات التنمية للجسم والعقل والعاطفة والروح معاً. بطريقة متوازية لا طغيان فيها لمجال على الآخر.

ذلك أن التعلم نسق معرفي وكل عضوي متكامل.

والمعرفة عملية نماء للإنسان... تشمل منظومات حية من البحث والاستقصاء والتقصي. وعندما نتحدث عن المعرفة فإننا لا نقصد المعلومات بل على العكس نقصد الخروج من ثقافة المعلومات والانتقال إلى ثقافة تشغيل المعلومات – حيث يتم تحويل المعلومات إلى معرفة – إلى علاقات وظواهر. وذلك يعني الانفعال بالمعرفة إلى الفعل.

ونمو العقل بهذا المفهوم الحيوي – لتقدم الإنسان وإبداعه – لا يمكن أن يتم بمعزل عن نمو العناصر الأساسية الأخرى للوجود الإنساني:

فالتنمية العاطفية: توكل إلى الفنون جميعها تلقياً وممارسة.

والتنمية الروحية: توكل إلى الدين والسنة والسيرة والتاريخ.

كما توكل التنمية الجسمانية إلى الرياضة بفروعها وفنون التعبير الجسدي.

وما يميز العقل – عن سائر وسائل الإدراك – حركته الانتقالية من مقدمة إلى نتيجة... يترتب عنها إدراك الحقيقة.

obeikandl.com

ذلك لأن العملية الفكرية لابد أن تبدأ بفكرة ما.

ومن تلك الفكرة تتابع الحركة العقلية الاستدلالية.

ليستدل العقل إلى ما يصل إليه من نتائج:

ثم يكون التطبيق – على الواقع – الحكم الفيصل على صحة هذه النتائج.

إن أهم الصفات التي يتسم بها النضج العقلي هي قدرة الإنسان على إدراك الواقع... إدراكًا يمكنه من إقامة أحكامه والقدرة على استخلاص المعاني المجردة من ذلك الواقع – فالواقع لا يكون إلا في أشياء محددة يجتمع لها حدود المكان والزمان معًا – فيتلقى الإنسان ذلك الواقع بمحدوديته فإذا كان ذا قدرة عقلية أقوى استخلص مما قد صادفه من واقع "أفكاراً نظرية" يستخلصها من خبرة الحياة من بلغوا من النضج العقلي- ما لم يبلغه عامة الناس – من القدرة على التنظير.

- تلك هي أهم هذه الصفات: أن يجاوز العقل مرحلة إدراك الواقع إلى مرحلة يصاغ فيه النظرية.

الفكر ملكة ومقدرة خاصة بالإنسان:

الفكر عند فيلسوفنا القديم "ابن سينا" هو إجماع الإنسان أن ينتقل من أمر حاضر في ذهنه إلى أمر غير حاضر فيه. بحيث لا يخلو هذا الانتقال من ترتيب.

للإنسان طبيعة فكرية هي النشاط الذهني – إحدى الخواص المميزة للطبيعة الإنسانية – بها نفهم ونبحث وندرس ونحلل ونرتب وننسق ونحدد ونحل ونكون المفهوميات. وبها نصمم ونجدد ونصوغ وننظم ونخطط وندبر ونقنن ونصرف الأمور... وكلها أنواع من النشاط تتركز في ذهن الإنسان. وأن نفكر هو أن نتساءل – الفكر الخلاق ينهض على طرح الأسئلة الأساسية – لماذا وكيف ولمن ومتى وأين ولِمَ وكم وبكم...إلخ؟.. فيكون التفكير تعبيراً عن العقل وانعكاساً للتعقل.

- التفكير عادة عقلية... هو أسلوب من أساليب عمل العقل.

وينشط العقل – ويتدرب – من خلال حركته على إحكام الاختيار وحسن التصرف. واتخاذ القرار الصائب. والقدرة على ترتيب الأوليات والأدوات وتحديد الأهداف تحديداً واضحاً حازماً جازماً (الأهداف المستقبلية والمرحلية – البعيدة – والقريبة الملحة).

والتنبه إلى ما هو أهم وأخطر.

- إن الحياة تركد إذا لم تجدد فكرها. فنحن دائماً في حاجة إلى أفكار جديدة. أيضاً نحن في حاجة إلى أصحاب رؤى جديدة... وهذا هو دور المفكرين "الأسوياء" لأنهم أساس تغيير الواقع نحو الأفضل والأجمل.

وبمعنى محدد فإن مسئولية المفكر – في أي زمان ومكان – تتمثل في نقل الرسالة ومواصلة نداء الوعي والإنقاذ والخلاص في آذان وعقول وقلوب الناس. وبيان الاتجاه والسبب. وتحديد الهدف والحل. وبث الوعي وقيادة الحركة في المجتمع. والتفاعل مع البيئة المحيطة – فهناك دور إنساني عام مطلوب من كل البشر بتصنيفاتهم المختلفة وهناك أدوار خاصة لكل فئة ولكل صنف وهذه الأدوار لا تتعارض إنما تتكامل ثم تلتقي في النهاية من أجل هدف واحد وهو استمرار الإنسان على الأرض وعمارتها – فالمفكر يمتلك القدرة على التفكير المنطقي والإبداعي. وفي الجانب الوجداني يمتلك القدرة على الحب والرحمة والتكافل والتواصل الإنساني. والسيطرة على نوازع العدوان والشر والكراهية والنفور. فالمفكر يستطيع منح الإيمان للمجتمع دائماً.

- أهل الفكر – فيما أجمع عليه العلماء – هم مصادر الطاقة في أي مجتمع.

وهم الرواد: يشقون ويبدعون طرقاً جديدة للخير والجمال.

ويحددون الأهداف والخطط ويرشدون الناس إليها – فيسلكونها إلى تقدم ورقي – وهم يحتفظون بالقدرة على النظر إلى الأمور بوضوح... وبنظرة – جديدة – صبوحة نقية. رغم أن القواعد المنطقية التي تحكم عملية التفكير واحدة لكل البشر. فكل الناس تتفق على مجموعة البديهات والمسلمات التي تحكم عملية التفكير وتؤدي إلى أفكار مقبولة راجحة التصديق. وإذا كان العلم (أياً كان التخصص) هو مجموعة من المعارف المنظمة في نسق خاص يسمح بتجويد هذه المعارف - مع تراكم الخبرة واقترابها التدريجي من الحقيقة – فعلى ذلك تكون العلوم ما هي إلا مجموعات من الأفكار المنظمة والموثقة في صورة كلمات وجمل تسمح بالتقييم والمطابقة مع الواقع.

- لكن أهل الفكر يكونون عادة متباعدين عن حقائق القوة والسلطة.

وعن طبيعة الصراع في عالم تتحكم فيه موازين قوة وليس موازين عدل.

كما أن المفكر غالباً ما يقف بمعزل عن الصراع المحموم الذي يجري من أجل المقاعد الأولى – في هذه الدنيا – وكذلك فعلت جميع الأرواح العظيمة التي يصعب إدراجها في هذا المعسكر أو ذاك. أو يصعب انتماؤها لقيمة غير قيمة الحقيقة والحق.

- **ما الإنسان إلا فكر وعاطفة. ووجدان وحواس:**

العاطفة هي من العطف والتعاطف. عن لين في القلب ورقة في الوجدان.

ولكن التعاطف والتفاهم – أو حتى الحب – بين الإنسان والإنسان. أو بين الإنسان والأشياء. فهو قوة تهدي وترشد وتفيد وتنير.

وبين الفكر والعاطفة صلات مركبة ولكل منهما تأثيرات متبادلة.

فالعواطف هي القوى الدافعة الأساسية في حياة الإنسان

ومن العاطفة التي تنشأ كل الدوافع – التي تمثل أساس الحركة لسلوك الإنسان – ونتيجتها التصرفات والأعمال والأفعال التي توجه حياة الناس.

والعاطفة تحدد "قيم" هذه الأفعال. كما أن هذه القيم تمثل "الضوابط" على حركة الدوافع... وما الغضب والخوف والفرح والحزن والحب والكراهية إلا استجابات عاطفية. أما الأفكار فهي تعتبر استجابات عقلية. ورغم أن العواطف والمشاعر – حقيقية – نشعر بها ونعبر عنها. إلا أنها تستعصي على وضع صور ذهنية لها ذلك لأن العواطف والمشاعر ذاتية باطنية داخلية وجدانية. كما وصفها أهل العلم.

ولأن العاطفة هي الدافعة والحافزة على الفكر... فإن التفكير وعمليات الذهن هي أيضاً تابعة لها – تنشأ منها – ويكون التعقل في العواطف مشتقاً من تعقل الدوافع العاطفية الوجدانية.

ولأن العاطفة هي التي تحدد القيم... فإن الفكر يتقبلها.

وتبعاً لذلك فإن العقل يصوغ المقاييس ويضع المبادئ والقواعد والأحكام كما أن قبول الإنسان لفكرة ما – أو رفضها – هو مقدار ما ينتج عنها من طمأنينة النفس – أو قلقها – ذلك لأنها تستمد أساساً من فطرته.

- **العقل والإرادة صفتين متآزرتين في مركب واحد... العقل يدرك ما هو صواب وما هو خطأ. والإرادة تعمل من أجل أن يسود العقل وأن يسود الأمن – الأمن في نفس الإنسان والأمن العام والأمان والسلام في المجتمع – والإنسان يملك حرية الاختيار كما يملك القدرة على تربية عزيمته وتقوية إرادته. وما جوهر الإنسان إلا: "إرادة عاقلة" إن أقوى صراع يدور في نفس الإنسان بين العقل والإرادة من جهة وبين الهوى والشهوات من جهة أخرى.**

لكن الإرادة ما زالت تميز الإنسان عن كل الكائنات الأخرى.

الإرادة تجعل نظرة الإنسان صافية ورؤيته وبصيرته واضحة جلية.

والإنسان – العاقل الواعي – يفعل ما تمليه عليه إرادته صواباً وتعقلاً.

لقد كان "أرسطو" هو الذي جعل تعريفه للإنسان أنه الحيوان الناطق!

ولقد أخطأ "فرويد" كذلك في نظرته لحقيقة الإنسان ودوافعه...

فالنفس – في تصوره – غرائز تطلب الإشباع في طرف ثم بيئة مادية هي مجال لهذه النفس ومحل لفعلها وانفعالها من طرف آخر. ثم لا شيء من وراء هذه الدنيا المادية. لا إله ولا روح ولا غيب! – هكذا أخطأ "فرويد" – وما نفعله وما نفكر فيه وما نحلم به يتم في جبرية وحتمية. تبعاً لما ينفثه فينا العقل الباطن والغرائز واللاشعور. والجنس هو الإله الحاكم والكل في خدمته! – هكذا تصور "فرويد" وأتباعه – فالإنسان مدفوع دائماً بقوى لا معقولة. وملقى به نحو أفعال قهرية. لا تبصّر فيها ولا رويّة – ولا إرادة – وهو مغلوب على أمره لا حيلة له ولا مخرج. وكل ما يملكه العقل هو أن يحاول تبرير هذه الرغبات والنزوات والشهوات البهيمية. والبحث عن وسائل مقبولة لإشباعها. أو التسامي بها ليزاولها – بصورة أجمل – أو الانتكاس بها إلى حالات هستيرية! والعقل بهذا المعنى خادم مكرس للبهيمية. ساقط في درك اللا معقول. أما الإحساس بالذنب والندم والتوبة فهي عقد نفسية يلزم التخلص منها.

لكن الإنسان – على خلاف هذا الزعم – مكرم مؤتمن في أصل خلق الكون.

وسبب هذا التخبط (الفرويدي) هو الإصرار منذ البداية على الرؤية المادية وعلى فهم الإنسان فهماً حيوانياً حسياً آلياً.

وما فعله علماء النفس "بعد فرويد" كان أسوأ... لقد أخرجوا الإنسان من بيئته الطبيعية وأدخلوه المعمل – فيما يعرف الآن بعلم النفس التجريبي – وبهذا كذبوا على الناس كذبة أخرى. لأن النفس بطبيعتها ذات كلية لا يمكن تشريحها.

النفس البشرية "كل" لا يقبل التجزئة. تنفلت وتستخفي وتستعصي على التجريب. ثم إنها بذلك تصبح شيئاً آخر غير النفس الحية... وإذا كانت الأصول فاسدة فالفروع أيضاً فاسدة ألم يقل "إيزنك" وهو أشهر ناقد سيكولوجي في الغرب:

(إن معدل شفاء المصابين بأمراض نفسية ثابت نسبياً سواء عولجوا أو لم يعالجوا بمدارس علم النفس الحديث).

- وما أغلب هذه الأمراض إلا حالات الغربة والمعاناة التي تعانيها نفس الإنسان لبعدها عن الله وانقطاعها عن مدده.

obeikandi.com

أما موقف الدين من النفس وأمراضها فهو مختلف تماماً:

فهو يبدأ بالإنسان من موقف حرية. فلا جبرية ولا قهر في الإسلام.

والنفس البشرية خلقها اللّه حرة – تختار خيرها وشرها – فلا إكراه.

واللّه يقول للشيطان "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان".

حتى الشيطان لا يستطيع أن يقهر الإنسان على اختيار لا يرضاه.

والمرض النفسي ليس قدراً. والسلوك الشاذ ليس قضاء محتوماً.

إنما النفس الإنسانية قابلة للتغيير والإصلاح.

- المنهج الإسلامي في إصلاح النفس يفعل ذلك على مراحل:

يبدأ أولاً: بتخلية النفس من عاداتها المذمومة (ذلك هو تفريغ الإناء مما فيه) بالاعتراف بالذنوب والتسليم بالعيوب. وإخراجها إلى النور.

المرحلة الثانية: هي التوبة... وقطع الصلة بالماضي (والندم على ما فات) ومراقبة النفس فيما يستجد من أمور. ومحاسبتها على الفعل والخاطر.

المرحلة الثالثة: مجاهدة الميول النفسية المريضة (ومحاربتها بأضدادها) ذلك برياضة النفس الشهوانية على التعفف. والنفس المتكبرة على التواضع. والنفس الأنانية على البذل والإيثار. والنفس الشحيحة على الإنفاق والزكاة.

ولا تنجح تلك المجاهدة دون طلب المدد من اللّه:

ودون الصلاة والخشوع والخضوع والفناء في محبة اللّه.

والاسترسال مع اللّه واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام.

طوال الوقت وفي كل قول وفعل. وذكر اللّه بالقلب واللسان والجوارح. فالسلوك والعمل. بذلك تعود الصلة بين الرب والعبد- وترتبط النفس بمنبعها – وتأخذ من أصلها : "فاذكروني أذكركم" (البقرة -152).

وقوله عز من قائل: "ادعوني أستجب لكم" (غافر -60).

وهنا تحدث المعجزة... فتبدل القلق سكينة. والفزع أمناً. والنواقص النفسية كمالات حتى يصل الإنسان إلى الوسط العدل وصراط الحكمة. فيعود النور ليغمر ظلام النفس إلى الأنوار والإشراقات الإلهية.

فالدين يرى النفس من منظور أعمق وأشمل.. هو علاقتها باللّه.

الإنسان ليس مادة فحسب. إنما هو مادة وسر نسميه "الروح".

- أما الروح... فعلمها عند اللّه ولا يعلمها إلا هو:

" ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً".

(الإسراء -85).

obeikandi.com

العبادة والعمارة:

- يقول – جل من قائل – في محكم آياته: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (الذاريات -56).

وتلك مسألة تستحق فحصاً دقيقاً... فالعبادة معنى من المعاني العميقة المركبة. وأول أهدافها الخاصة: حصول الإنسان على رضا خالقه – واجتياز اختباراته – خلاصاً لروح الإنسان وإنقاذاً لنفسه وتحصيل السكينة والطمأنينة بالتوكل الجميل على الله. وتمام التسليم لله. وطلب المدد من الله. واتباع أوامر الله واجتناب نواهيه... وهذا الهدف معروف ومفهوم.

أما الهدف العام للعبادة – وهذا هو المعنى المهجور فيها – فهو: إقامة الخلافة في الأرض. تصديقاً لقول الله لملائكته: "إني جاعل في الأرض خليفة". ومعنى تحقيق الخلافة أو الاستخلاف في الأرض – كما سبق أن أشرت – أنه الخلافة عن الله عز وجل في عمارة الأرض. وقيام نظام إنساني يسمح للإنسان بتحقيق ذاته وبنمو طاقاته – ومعرفة أسرار العلم والعمران – ليوفر له أكبر قدر من التقدم المادي والرقي في الحياة.

لقد خلق الإنسان على الأرض ليتعبد ويعرف ويعمر فالعبادة – إذن – تعني في المفهوم الإسلامي أمرين:

أولاً: التوحيد ومعرفة الله وطاعة التكاليف وكمال العبودية لله.

ثانياً: عمارة الأرض واتساع عمرانها.

وجميع العبادات تهدف إلى رقي الإنسان والنهوض به وإسعاده.

وكل الأوامر والنواهي تسعى لسعادة الإنسان لا لمنفعة الخالق تبارك وتعالى- أما النفع والضرر فعائدان إلينا – ونحن مختارون في تطبيق منهج الله... في (افعل) و(لا تفعل) وهو المنهج الذي سيتم عليه الحساب في الآخرة. لأن معنى التكليف تشريع أوامر ونواه – أي أفعل ولا تفعل – ولكن لا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله. بالعبادة تنسجم مع الإيقاع الذي يحكم الكون. وبها توظف كل ما في الكون. وبها ندرك التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يحبها الله. وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله. إن الإنسان – في هذه الدنيا – بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يكون مع الله. وإما أن يكون مع غير الله.

- **كل حركة الحياة – كما يريدها الله – عبادة:**

وكل عمل – يعيننا على عبادة الله – عبادة.

لقد قدمت الرسالة الخاتمة نظامًا شاملاً متكاملاً للحياة.. بكل جوانبها الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. كانت الرسالة نقلة فكرية هائلة نحو حياة روحية ومادية أفضل – تجاوز حدود العلاقة بين الإنسان وملكوت السماء – فشملت علاقة الإنسان بالإنسان. فتغير المجتمع وتغير سلوك الإنسان وتغير أداؤه. هذا الانسجام بين الفكرة والواقع. والتطابق بين العقيدة والسلوك هو الذي جعل الإسلام دينًا وحضارة. وارتباط الإسلام بالسلوك والحضارة ملمحاً من أهم ملامحه.

كما أن قاعدة الإيمان إذا أحسن توظيفها فإنها تصبح ذات تأثير هام وإيجابي في أحداث التغيير المنشود – بما يلبي طموحات الأمة في الحاضر والمستقبل – فالإيمان طاقة بناءة هائلة... لا حدود لفاعليتها.

والذين يتحدثون عن الإسلام كعلاقة شخصية بين الإنسان وربه فحسب فيظلمون الدين أبلغ الظلم. صحيح أن الإسلام يبدأ بعلاقة بين المرء وخالقه. وبأداء الشعائر الدينية المفروضة. لكن هذه العلاقة لكي تستمر وتثمر يجب أن تتحول إلى نظام حياة... أيضاً لابد من ضمان ثمرة العبادة. أي تقدم الإنسان وارتقائه. وتحقيق أمر الله في الخلافة في الأرض. وبأن تكون "التقوى" نتاجاً للعبادة. والطاعة والإخلاص والأمانة والإتقان في العمل والصدق ومراقبة الله هي تقواه.

والفرق بين الدين كشعور داخلي بحت ونظام مطبق في الحياة... هو الفرق بين الفكرة النظرية والواقع العملي.

وعندما تساءل مفكر مثل "روجيه جارودي" – بعد إشهار إسلامه – لماذا أنا مسلم؟ قال: لأن الإسلام من ناحية مبادئه – وليس من ناحية التطبيق للأسف – أكثر الأديان شمولا وأكثرها توحيداً للأديان. فبينما نجد الأخرى كل منها مقصوراً على أصحابه متعصباً لآرائه. فإن الإسلام لا يقدم نفسه كدين جديد. بل هو: الدين.

فالإسلام هو عودة إلى الدين الحنيف. كما أن الإسلام هو أكثر الأديان توحيداً وتجميعًا للأديان السابقة عليه. أما الطامة الكبرى فهي أنه بدلاً من التركيز على الرسالة العالمية للقرآن فإننا نقتصر على الدفاع عن انتشارات محلية وثقافات محلية. إن بروز التزمت والتطرف في الإسلام ليس في صالحه. بل يتضمن حطاً من الرسالة العالمية للإسلام وعودة للوراء.

الحقيقة أن الإسلام متقدم بكثير من واقع المسلمين اليوم...

والآن بعد خروج المشروع الماركسي من خيارات المستقبل – وانتصار المشروع الليبرالي الغربي بما يشبه الاكتساح – لم يبق في الساحة سو ى المدنية الغربية والإسلام... فهل معنى ذلك ضرورة المواجهة بينهما؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على إجراء عملية نقد ذاتي أساسية مضمونها: كيف يقدم المسلمون أنفسهم كدين وثقافة وسلوك للعالم؟

بعبارة أخرى: دراسة التأثيرات السلبية لسلوكهم كدول ومجتمعات وجماعات على تشكيل صورة نمطية للإسلام والمسلمين قد لا تكون تعبيراً صادقاً وأميناً عن روح الإسلام الحقيقية.

- ولا يقل أهمية عن ذلك أن الانتصار الساحق للمشروع الغربي صار يهدد هوية العالم الإسلامي – وبالتالي فإن ذلك العالم يواجه الآن وأكثر من أي وقت مضى – بما قد أسميه بحالة الانسحاق الحضاري (وهذه قضية ينبغي أن ترتفع فوق التنطع والخلاف) فالواجب على المسلمين أن ينظروا إلى هذه القضية من منطلق الحرص الشديد على بقاء قيمهم ومبادئهم وأصالتهم وهويتهم المتميزة... أيضاً فإن فكرة التعايش مع الآخرين لابد أن تحتل مكانها في الوعي على المستوى الوطني والقومي.

خاصة أن المشروع الإسلامي يتوجه بالخطاب إلى كل البشر...

وفي كل زمان ومكان – باعتباره "المشروع الخاتم" الذي أكمل به الله الدين – وهذه الرسالة التي اكتملت بها هداية السماء لا يمكن إلا أن تكون مستقبلية بطبعها. ومن هنا تأتي مرونة صور المستقبل التي تقدمها – وثراء مضمونها القادر ليس فقط على مسايرة عجلة التاريخ بل وعلى توجيهه لو أحسن توظيف عناصره التي يوضحها منهجه – حيث تتم إعادة بناء العالم وتحديد ملامح نظامه الجديد. وحيث نرى أن الإسلام يمكن أن يسهم بقدر طيب في رسم هذه الملامح والمعالم. إذا ما أحسن أهله التعبير عن مضمونه وإمكاناته فكراً وفعلاً.

فالدين في صميمه رابطة جامعة – اجتماعية وثيقة – تجمع بين الناس.

إن الإسلام – كمشروع حضاري – جدير بأن يوضع في تجربة الحياة المعاصرة. وهذا لا يمكن ضمانة بغير نظام. وتحول الإسلام إلى نظام حياة... ومشروع حضارة مكتمل. فالدين يمثل أهم مصدر للقيم الضابطة للسلوك البشري. الإسلام – الذي أعنيه هنا – هو الدين والقيم والأخلاق والعلم والعمران والثقافة والمشروع الحضاري.

إن كل عمل وفعل يرضى الله تعالى فهو عبادة – يتقرب بها الإنسان إلى ربه – فالإنسان عندما يؤدي عمله بإتقان وإخلاص يبتغي من وراء ذلك رضا الله يكون ذلك من العبادات التي يحبها الله لعباده "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" وكذلك فإنه ينبغي أن نتعامل فيما بيننا بالرحمة والمحبة والإخاء والتكافل. وتقديم العون لكل محتاج.

وأن نلتزم بالقيم – وأن نقرن الإيمان بالسلوك القويم وبالعمل الصالح – وبفهم الاستخلاف عن الله في الأرض (المنصوص عليه في القرآن) باعتباره تكليفًا من الله لجماهير المؤمنين أن يقفوا في مقدمة دعاة النهضة وصناع العمران... وتلك مفاتيح إحياء التدين الحضاري والبنائي.

إن كل قضية من قضايا أصول الدين الأربعة: وهي العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات... هي التي تجسد رسالة القرآن العظيم ولكي يؤمن الإنسان بأن هذا الدين حق – وأن هذا الحكم الإلهي الذي نزل من فوق سبع سماوات هو الحق – فأبقى الله في كل أمر من أمور هذا الكتاب ما يشهد بأن هذا الكلام من صنع الله.

- من سنن الله في الكون السعي والأخذ بالأسباب المشروعة. والأخذ بالأسباب – كما أمر الله تعالى المؤمنين – قضية إيمانية عميقة لها ضوابطها. والمؤمن مطالب بأن يسعى في طلب الرزق الحلال وأن يتحلى من أجل ذلك بإخلاص النية وبالأمانة والشرف. وأن يتوكل على الله وحده ثم يترك الأمور تجري بمقادير. ولذلك كان اقتران العبادة والعمل – الذي يكسب منه قوته وتزدهر به حياته – بل حياة الناس جميعًا من بيع وشراء وأخذ وعطاء وحرث وزراعة وصناعة وبناء وعمران.

إن فكرة الإنسان عن عظمة الله تنمو مع الوقت... وتختلف باختلاف العمر والمعرفة والثقافة والعلم. وهي تنمو كلما اكتشف الإنسان حقيقة من حقائق الجسم أو النفس أو الأرض التي يعيش عليها.

وتمضي الأيام ويقترب الإنسان من الحكمة... ويكتشف أنه صائر في النهاية إلى الموت. وأن كل ما على الأرض هو لعب ولهو باستثناء حقيقة واحدة هي حقيقة ابتلاء الله تعالى للبشر. أما حقيقة الحياة الدنيا فقد أوجزها النص القرآني في قوله تعالى: "وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون". (الحيوان بمعنى الحياة الحقيقية الأبدية)...

إن إدراك هذه الفكرة هو إدراك الإنسان للحكمة.

الإنسان مكلف بعمارة الأرض:

- الإنسان مكلف من الله بإعمار الأرض. حيث يقول الحق سبحانه:

"هو أنشأكم من الأرض وأستعمركم فيها" (هود –61).

" استعمركم فيها" أي كلفكم بعمارتها. وبالعمل والإبداع والعمران.

فالإنسان مخلوق مكرم ومكلف... وتفيد هذه الآية الكريمة – من القرآن الكريم – تفويض أمر عمارة الأرض إلى الإنسان. ووجوب عمارة الأرض وفق منهج الله. واستعمارها يكون بالعمل والفعل.

وهو ما ذهب إليه جمهور العلماء: إلى أن الله تعالى أمر الناس بعمارة ما يحتاجون إليه من بناء مساكن. وحفر أنهار وغرس أشجار. إلى غير ذلك مما يستدل على وجوب عمارة الأرض وعمرانها.

وقد يسرها الله عز وجل بما وضعه من أسرار في كونه – ثم كشف عنها لخلقه – ليظهر لكل جيل مدى إعجاز الخالق وقدراته.

وعمارة الأرض مفهوم يمكن أن يتسع ليشمل مجال الدعوة وإقامة العدل... وكذا الصور المادية لعمارتها من بناء وإنشاء وعمران وعمل وصناعة وزراعة...إلخ. وما ينطوي تحت كل منها من فاعليات ومهارات وصرف وأنشطة وتنمية وبحث وعلم وفن وإبداع.

وعمارة الأرض – من خلال هذا المفهوم الأوسع – يمكن أن تتطابق مع مفهوم العبادة... وتعكس نظرة الدين لكل من مفهومي "العبادة والعمارة" كما سبق أن أسلفت. ولأن العمارة جهد جماعي.

وفكرة الاستخلاف – المنصوص عليها في القرآن الكريم – تعني أن للإنسان رسالة يحاسب عليها أمام الله هي إعمار الأرض.

وأنه لم يخلق في هذه الحياة عبثاً. إنما خلق وركب فيه ما ركب من قو ى العلم والإدراك وأدوات العمل والإنتاج وسخر له الكون في أرضه وسمائه ومائه وهوائه لحكمة سامية – تعبر عن جلال الله وجماله – هي أن يكون الإنسان خليفة في الأرض... يستعمرها ويعمرها ويعمل على إصلاحها واتساع عمرانها. وبإظهار أسرار الله فيها.

وإذا كانت هذه هي مهمة الإنسان في الحياة – وهي حكمة خلقه وحكمة الأنعام عليه بقوى العلم والعمل والإبداع – وحكمة تسخير الكون له وإخضاعه له. فإنه لا سبيل إلى عمارة الأرض. وقيامه بهذه المهمة وتحقيق تلك الحكم إلا إذا تحصن بالعلم وبالمعرفة. وتعاون الجماعة.

الإنسان خلال حياته – القصيرة – في الحياة الدنيا عليه ألا يهمل الدنيا. فمن وصايا القرآن العظيمة قوله تعالى: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق" (الأعراف -32).

هذه الوصية القرآنية تحقق التوازن والاعتدال بين حق الدنيا والآخرة.

وحق الله والنفس فتعمر الدنيا بنتاج العمل والعلم والإبداع.

فالإسلام منهج عام للروح والجسد والدنيا والآخرة... وإذا كانت الآخرة هي الهدف والغاية. فإن ذلك لا يعني الزهد المطلق في الدنيا والإهمال لها ولكل متاعها وسعي الإنسان لسعادته ورفاهيته. طالما التزم بحدود الله وتحصن بالتقوى – ليعرف الخير من الشر والنافع من الضار والمعمر من المخرب فيها. وإقرار الخير والحق والجمال في نواحيها.

وبذلك كان الإسلام دين الفكر ودين العقل ودين العلم والعمل.

وبذلك كانت أكبر دعوة عرفتها البشرية للعلم والعمل والإنتاج.

وكذلك ارتفع القرآن بالعلم وجعل أهله في المرتبة الثالثة بعد الله والملائكة: "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط" (آل عمران -18). وقد نبه القرآن العظيم إلى أن كل شيء في الحياة يجري بإنتظام: "إنا كل شيء خلقناه بقدر" (القمر -49).

وأن سنن الله الإنسانية والكونية تتصل بالعمران وبإزدهار الحضارة.

بتعبير آخر: فإن سنن الله في الكون وفي الأنفس وفي بناء الأمم والحضارات قائمة بالفعل... ومن هنا فإن دراسة السنن الكونية أمر لابد منه (ولكن توزيع السنن على العلوم يحتاج إلى ضوابط المتخصصين في المقام الأول) تاركاً للإنسان أن يسعى بعلمه وعمله وجهده لتحقيق مسئولية إعمار الأرض واستخراج كنوزها والسعي لعمرانها.

- ذلك أن عمارة الأرض- وظيفة أساسية للإنسان في الحياة الدنيا – تستوعب كافة أوجه النشاط الإنساني بها. كما أن إعمار الأرض يكفل على النطاق الشامل إنماء المجتمع. ويستلزم توافر الطاقات اللازمة لتنفيذ هذه العمارة. سواء كانت طاقات بشرية تكمن لدى الإنسان أو الجماعة. أو طاقات مادية تتمثل في مجموع وسائل الإنتاج المتاحة للمجتمع. وكذلك كافة الموارد الطبيعية التي أودعها الله في الأرض ما عليها وما في باطنها... وتكون هذه الطاقات البشرية والمادية لأي مجتمع وموارده الطبيعية مجموع ما يتوافر لهذا المجتمع من طاقات يستعين بها في القيام. بوظيفة عمارة الأرض وعمرانها.

obeikandi.com

عمارة الأرض أصدق سجل للحياة:

- من خلال أعمال العمارة نستطيع الحكم على أي أمة من الأمم – في أي عصر من العصور – وندرك ما حققته هذه الأمة من تنمية وتقدم وحضارة... فعمارة الأرض هي أكثر الوسائل مباشرة. للكشف عن روح الأمم وضميرها وسلوك الناس والقيم السائدة.

العمارة مرآة الحضارة. وأصدق سجل لحياة الأمم.

وأعمال العمارة تتضمن التجارب الأساسية لأي أمة.

وتمثل الخبرة الجماعية المشتركة لها – فيما يجمع العارفون – كما تكون تجسيماً للتعبير الجماعي القومي والثقافي... وتعبيراً عن القيم الحضارية والطموح ورمزاً لها. وكل هذه الحقائق تنقلها العمارة بصدق وأمانة. فنكتشف منها – في ذات الوقت – ضمير هذه الأمة. كما ندرك سلوك الإنسان والناس والمجتمع فالمغزى الهام للعمارة هو تعبيرها عن الحياة في شكل مادي. ومن ثم فإن عمارة الأرض تمثل قمة الإنتاج والإبداع في أي مجتمع. حيث يمكن استقراء تاريخ العمارة في تطورها وفي مراحلها المتعاقبة حيث الحوار بين المجتمع والبيئة المحيطة صادقاً ومعبراً بما ترسب لديه من آثار الحضارات المتعاقبة عليه. فتكون العمارة رموزاً – مرئية – لروح العصر وسجلا للحياة... ولسبل السلوك والتصرف والتعبير وطرق الحياة (وتسجيلاً لها) وكل قيم التاريخ وتطور الحضارة نقلتها العمارة بصراحة وصدق.

فالعمارة العظيمة الحقة – كما قال علماء العمارة – تنشأ من ظروفها ومن بيئتها ومن الإمكانيات المتوافرة لها – كما تنشأ من احتياجات عصرها الاحتياجات الاجتماعية الجماعية – ومن الدافع عن الرغبة في الاستيفاء لتلك الاحتياجات. وكل ثقافة وكل أمة وكل جماعة تربى لنفسها نظام معيشتها. وتتقيد بما في مقدورها من وسائل فنية وتقنية وعوامل انتفاعية.

وتجيء الأعمال المعمارية لتكون حلولاً عملية تخدم الوظائف والمطالب العملية. كما تجيء لتكون في الوقت نفسه تجسيداً لتطلعاتهم ولمثلهم العليا. وبذلك تتماشى المباني مع "أسلوب الحياة" وطريقة العيش وروح العصر والنظرة العامة إلى الدنيا... وتزداد الخبرة ويتضح الهدف وعندها يتبلور للمباني شكل عام. ويصبح لها طابع أو طراز خاص بها.

من هذا كله نستخلص أنه ما دامت العمارة عامة وللعصر كله وأن الأعمال المعمارية العظيمة تبقى على مر الأجيال فيجب أن تتماشى مع المبادئ العامة – مبادئ الكون وقوانين الطبيعة وطبيعة الإنسان – فعندها تخاطب جميع المستويات الفردية والجماعية والمحلية والعامة. لأنها تتفق مع الحاجات المتأصلة في قلوب الناس وأذهانهم ومع الميول الثابتة في طبيعة الإنسان. والمتابع لتاريخ العمارة يشعر بكفاح المعماريين من أجل التطور والرقي ويشاهد تجاربهم المتتالية ونتائج إحساسهم وفهمهم المتزايد لحقائق البناء والمواد. كما يشهد ببراعتهم وبقدرتهم على التأقلم لظروف المناطق المختلفة والبيئات المتنوعة في عالمنا الواسع. فاستطاعوا أن يواجهوا الحياة والواقع بشجاعة وفكر وموضوعية وأن يتعاملوا مع الحقائق. فقد تمكنوا من التحقيق العملي لتلك الأحلام والتصورات الجميلة وتجسيدها في أعمال معمارية عظيمة كانت وما زالت أصدق سجل لحياتهم. مع ملاءمة وتكيف لظروف البيئة والمواقع والمناخ والاتجاه والحاجات الوظيفية. هكذا يجمع جمهور المنظرين.

فالمجتمعات في تفاعل مستمر وتطور دائم. والمحصلة النهائية لإنماء المجتمع أن تتشكل الحضارة وتتخذ مظاهرها وصفاتها وطابعها المميز. فتتواجد روح العصر وتشمل كل أوجه النشاط الإنساني. وعندما تتواجد روح العصر تكون القوة الدافعة للبحث عن وسيلة مادية للتعبير عنها. فتكون العمارة رموزاً لروح العصر – وهذا ما يميز العمارة بمعناها الحقيقي – عن مجرد بناء أو إنشاء يفتقر إلى الروح التي تتسامى بالمادة وتكسبها قيمة ومعنى. وهي التي تجعل من العمارة فناً جميلاً... ذلك الفن الذي قال عنه "أرسطو" إنه أصدق من التاريخ.

- هكذا ندرك أن عمارة الأرض هي أصدق سجل للحياة كما يعيشها الناس... أو كما يأمل الناس أن يعيشوها في الحياة الدنيا.

لقد تميزت الرسالة الخاتمة بشموليتها للدين والدنيا – وليست هناك أعمال خاصة بالدنيا وأعمال أخرى خاصة بالآخرة – ولقد أخبرنا الله سبحانه بقوله: "قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين" (الأنعام -162). معنى ذلك أن اليوم كله والعمر كله لله رب العالمين. وفي هذا العمر يقدم الإنسان إبداعاته المتنوعة في مناحي الحياة التي على رأسها عمارة الأرض...

ويتجلى ذلك المعنى عندما يستشعر الإنسان أنه خليفة الله في الأرض.

ومن منطلق هذا التشريف تكون عمارة الأرض بكل معاني العمران وأبعاده.

إعمار الأرض يكفل إنماء المجتمع:

- إن عمارة الأرض واجب ديني – واجبة شرعاً – بدليل أن الله سائلنا عن أعمارنا فيما أفنيت وعن أموالنا فيما أنفقت. وفرق في التصور – كما يقول د. أحمد عفيفي – بين أن تكون عمارتنا للأرض وفق منهج الله وابتغاء مرضاته. أو أن تكون عمارتنا للأرض لمجرد العمران المبتور والمنقطع عن اتصالنا بالله رب العالمين.

إن لدينا حديثاً عن رسول الله يعتبر منهجاً إسلامياً متكاملاً لعمارة الأرض: "إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها". إن أمة لديها مثل هذا المنهج – وهذا التوجه – لا يمكن إلا أن تكون أعظم الأمم عمراناً وأزهاها عمارة... وتتجلى عظمة عمارة الأرض في الإسلام بكونها أحد الأعمال التي يتقرب بها الإنسان إلى بارئه علاوة على كونها تمثل إضافة إلى ما سبق من عمران. وكونها لبنة في عمران قادم. فإن ذلك يحقق نوعاً من التواصل العمراني بين الأجيال وهو أمر محمود في حد ذاته. فإذا كان من قبلنا غرسوا فأكلنا. فنغرس نحن ليأكل من يأتي بعدنا. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الأمل رحمة من الله لأمتي. ولولاه ما غرس غارس شجرة ولا أرضعت أم ولداً".

ترتكز فلسفة التنمية في الإسلام على نفس فكرة الاستخلاف...

بمعنى: إعمار الأرض على النطاق الشامل والأعم بما يكفل إنماء المجتمع. ويتلخص المنهج الإسلامي – لتحقيق التنمية في المجتمع – في أن العمل عبادة. والإنتاج فريضة. والعمارة فرض كفاية على الأمة.

والرؤية الإسلامية للعمل والإنتاج – والمشاركة في التنمية تعتبر من التكاليف. التي لا تقل عن طاعة التكليف بالعبادات في جوهرها.

ولقد بلغ الإسلام في تقديره للعمل وتكريمه للعمال حداً لم يصل إليه نظام اقتصادي وضعي.. فالعمل لكسب الرزق أفضل من نوافل الطاعات والتفرغ لعبادة الله. بل إن حضرة النبي يعتبر العمل جهاداً في سبيل الله. كما أن القرآن الكريم قد ربط بين فريضة من أهم أركان الإسلام – هي الصلاة – وبين الانتشار في الأرض وابتغاء الفضل عندما يقول: "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله" (الجمعة -10).

فيعتبر أداء الصلاة والسعي في الأرض فرائض وتكاليف إسلامية.

لا فرق بينها – في نظر الدين – وطاعة التكاليف.. عبادة يؤجر عليها المصلى والساعة. كما ترتبط نفس الآية الكريمة بين الانتشار في الأرض وابتغاء الفضل – أي طلب الرزق – بمعنى أن السماء لا تمطر ذهباً. وأن تحصيل الرزق يحتاج إلى سعي الإنسان والأخذ بالأسباب والمساهمة في النشاط الاقتصادي والإنتاجي. والعمل بأمانة وإخلاص.

- الإسلام يفرض على الأمة بذل الجهود لمضاعفة العمل والإنتاج.

وتوجيه كل الطاقات لبناء اقتصادي قوى. يهدف إلى تنمية متوازنة شاملة... غايتها الإنسان نفسه ليكون بحق خليفة الله في أرضه. ذلك لأن تكليف الإنسان بإعمار الأرض – وتشريفه بالعمل والإنتاج والتنمية وإصلاح شئون الحياة – من الأمور التي تقع في نطاق مفهوم حمل الأمانة والاستخلاف واتساع العمران.

وهو الإنسان الذي يقوم بفريضة إعمار الأرض كجزء من عبادة الله. (بالمعنى الشامل) والذي يعمل في إطار منضبط من الأخلاق والقيم والمثل العليا.

فالإنسان هو أساس المنهج الإسلامي في التنمية.

وهذا المنهج يعتمد أساساً على الإنسان في تحقيق التنمية.

الإنسان هو محور التنمية... وهدفها وصانعها ومصادرها ووسيلتها وغايتها. والمشكلة الاقتصادية تدور – في معظم محاورها – حول الإنسان.

كيف؟

فلنبدأ بتدبر آيات القرآن الكريم :" وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ماءاتاكم" (الأنعام -165)." جعلكم خلائف الأرض" أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل.

" أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها" (الروم -9).

الإنسان المؤمن يشعر دوماً باحتياجه إلى الله – فالإيمان بالله والشعور بالحاجة إليه من الفطرة "فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (الروم -30) ومن أسباب الشعور بهذا الاحتياج يجعل المؤمن يخلص عبوديته لله مما يحرره من الخوف ممن سواه "فلا تخشوا الناس واخشون" (المائدة-44) فلا يتذلل لأحد ولا يريق ماء وجهه لأحد. لأنه يعلم أن الله هو الرزاق.

إن الأمر كله لله "ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون" (هود-123). والذي يستشعر الحاجة إلى ربه يدرك بنور بصيرته أنه فقير إلى الله مهما كانت إمكاناته أو سعة حيلته "يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد" (فاطر-15).

خلاصة القول أنه رغم أن المشكلة الاقتصادية تكمن في ضعف الإنتاج وانخفاض الإنتاج كما وكيفا – كما تنبع من ندرة الموارد بالنسبة للحاجات – فإن هذه المشكلة تعود للإنسان نفسه. وإلى تنظيم العمل والإنتاج في المجتمع... وهذه الندرة للموارد المتاحة بالمقارنة للحاجات الإنسانية المتزايدة والمتجددة "نسبية" فالنادر وغير النادر إنما يقاس على أساس العلاقة بين الكميات المتاحة من الموارد – وحاجة الإنسان إليها – ولذلك فإن هذه الندرة النسبية للموارد قائمة من الوجود المادي للإنسان وقدراته ودوافعه لإعمار الأرض... إن الله عز وجل قد خلق الكون وسخره للبشر – بما فيه من خيرات – بحيث يكفي لإشباع الحاجات الإنسانية. إذا روعي في تنظيم الحياة التعاليم الإلهية والدينية وإقامة العدل وتنظيم سلوك الإنسان.

وسلوك الإنسان بصفة عامة يأتي محصلة لتفاعل نوعين من القوى:

الدوافع: وتمثل أساس الحركة لسلوك الإنسان.

القيم: وتمثل الضوابط على حركة الدافع كما تحدد أساس النظام الاجتماعي.

وأحد مظاهر حكمة الإسلام أنه يقوم بتنظيم سلوك الإنسان من خلال تنظيمه لكل من هذين النوعين من القوى – في ذات الوقت – وفي أنسب صورة – وهذا التنظيم يعتمد على مدخلين:

المدخل الذاتي: وفيه ينتظم السلوك من الإنسان ذاته ويعتمد على الضمير.
المدخل الاجتماعي: وفيه ينتظم سلوك الإنسان في المجتمع من خلال الأمة أو الدولة.

- فكرة أن المال مال الله: تنبع من النواة الصلبة الشديدة البساطة – التي يقوم عليها الدين – وهي: الوحدانية. ومن فكرة الوحدانية المحضة الخالصة نفهم معنى المال في الإسلام – وهو أن المال مال الله – وأننا مستخلفون فيه. وأن ملكيتنا للمال ملكية مؤقتة. وأن هذه الملكية مرتبطة بالتكليف.

والمثل الشعبي الذي يقول "بأن الكفن ليس له جيوب" إنما يعبر عن حكمة بالغة... إن الإنسان تنتهي ملكيته للمال تماماً عندما يلفظ النفس الأخير. وهذا الواقع المادي يجعل المعنى الفلسفي – المال مال الله – حقيقة مادية ملموسة.

• إنا يجب أن نضع نصب أعيننا الهدف الأصيل والرئيسي وهو: التنمية المستدامة – التنمية المتواصلة المستمرة – التي لا تنجم عنها آثار سلبية تؤدي إلى إعاقتها أو توقفها... ورحم الله (علي بن أبي طالب) الذي قال منذ نحو ألف وأربعمائة عام في وصيته إلى أحد الولاة: فليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج (أي الضرائب) لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن أراد الخراج دون العمارة (أي التنمية) أهلك البلاد وأذل العباد ولم يدم أمره إلا قليلاً. (انتهى ما قاله "علي" كرم الله وجهه).

نظريات التنمية الحديثة تقول إنها ظاهرة تجديد نوعي في حياة المجتمعات – وهي بالتالي طويلة الأمد بالضرورة – والعلم أصبح اليوم ينظر إلى المجتمعات على أنها كائنات لها شخصيتها المعنوية أو الاعتبارية. وهي في ذلك كالإنسان. تنمو من مرحلة إلى مرحلة بعدها. والتعامل مع المجتمع – الذي تحدده التنمية – يشمل جوانب عديدة إنسانية واقتصادية وعلمية وتقنية. وأي تغيير في جانب منها يؤثر في الجوانب الأخرى. وهذا يعني أن مخطط "إستراتيجية" التنمية لابد أن يغطي كل جوانب الحياة... كما ينبغي تحديد هدف نهائي واضح لها.

وغالباً فإن هذه النقطة هي التي تبدأ منها أي استراتيجية:

فهي تبدأ بتحديد هدفها النهائي – ثم تلمس السبل إلى تحقيقه والبحث عن محاور لحركتها – عن طريق تحويل الهدف إلى سياسات.

يمكن تحويلها بدورها إلى خطط تنفيذية. تتكفل بترجمة الهدف إلى حقائق واقعة... والأهداف والسياسات والخطط: تعيش كلها في حركة التاريخ وليس خارجها – بمعنى أنها حياة في وسط حياة – متأثرة بما حولها.

مستجيبة لتفاعلاته متكيفة مع تطوراته تتعدل طبقاً لمتغيرات الواقع.

ولقد أصبح للعلم وتطبيقاته التكنولوجية – أثر كبير على إعمار الأرض. وإنمائها – والبحث العلمي هو الذي يغذى دائماً مخططات التنمية الشاملة. بصفة عامة. والعمرانية منها على وجه التحديد – لذلك لابد أن يوضع له أهداف وسياسات وخطط واضحة المعالم – تؤيدها جموع الأمة وتدعمها بكل ما يضمن لها النجاح والاستمرار والاستثمار.

• التغير التكنولوجي هو حقيقة هامة في إنماء أي مجتمع وأي أمة:

وكلما ازدادت قدرة الأمة على تفهم عملية التغير- واختيار التكنولوجيا الملائمة لعملية نموها – وإدماج العلم والتكنولوجيا داخل النسيج الأساسي للفكر الإنساني والاجتماعي والاقتصادي للأمة... ازدادت قدرتها على السيطرة أو التحول مع عوامل التطور والتغيير والتجديد والتحديث.

- نحن بهذا المفهوم الذي يتخذ من الوعي الإنساني ذاته أداة فاعلة وفعالة نجعل من الاستثمار البشري مجالاً هاماً – بالإضافة إلى استثمار البيئة – استثماراً يخرج كنوزها لإعمار الأرض وإلى توفير البيئة المعيشية الملائمة لأفراد المجتمع. والتي تمتد آثارها وتنعكس على رفاهية أفراده- كما تمتد إلى كفاءة الأداء والإنتاج – وفاعلية مشاركتهم.

فتعمق فيهم وبينهم قيم المسئولية والانتماء... فنماء الفرد هو أقوى حافز له على الانتماء. وبذلك تدور عجلة التنمية في المجتمع.

غير أن هناك أبعاداً أكثر عمقاً تتجاوز المشكلة الاقتصادية بل تجعلها نتيجة لأزمة أوسع: هي الأزمة الحضارية الراهنة التي نعاني منها.

- أخطر مؤشرات هذه الأزمة يتمثل في غياب – أو تغييب – الوعي الحضاري القومي... أي ضعف الإيمان بقدرة وقوة هويتنا.

التي تحدد ماذا نأخذ وماذا نرفض من الحضارات الأخرى.

فهويتنا يجب أن تحدد الاختيار بين ما يصلح لنا وإهمال ما لا يصلح.

وكيف ننتقى من الحضارات الأخرى ما يثرى حضارتنا. لاما يضيعها.

إن هويتنا القومية – ذات الجذور العميقة – ينبغي أن تنشد: تحقيق الهوية الفاعلة الفعالة المنتجة للحضارة.

كما أن التعرف على دور الإنسان – المكلف بإعمار الأرض – عبر مراحل تطور الحضارات – خاصة فيما يتعلق بحتمية التنمية الشاملة استناداً إلى إطار عالمي – لا يعني إغفال المنظور القومي.

- لتكن الغاية المنشودة هي: التعرف على مدى إمكانية تكامل الهوية القومية المصرية في إطار رؤية عالمية مستقبلية.

فالتنمية الشاملة تعد أحد الأبعاد الرئيسية للحضارة.

ومن ثم ينبغي أن تساير معطيات العصر المتمثلة في الثورات العلمية والفنية والثقافية والمعرفية والتكنولوجية. فالتطور السريع في العلوم والتكنولوجيا قد أحدث ثورة في عالمنا.

فالمعرفة والإبداع هما الذخائر الأساسية للتنمية في عالم اليوم. وغياب الإبداع يترتب عليه عزلتنا عن عملية التنمية المستدامة في الحضارة الراهنة ومعرفة مفاتيحها.

ومن هنا تصبح قضية مستقبل الإبداع: في عالم يسيطر عليه العلم – وتغلب عليه الثقافة العلمية بكامل طاقاتها ونتاج تقنياتها – قضية بالغة الأهمية لأمتنا المصرية.

obeikandl.com

الدين والعلم والفن:

- الدين والعلم والفن هم أشمل مجالات الفكر الذي يميز الإنسان.

وأهم نواحي النشاط الإنساني الخلاق لصناعة مستقبل أكثر ارتقاء وأعظم إبهاراً... فالإنسان هو الهدف – دائماً وله تدور الحياة بكامل طاقاتها.

فإن كان العصر الحديث قد جعل العلم أساساً للبناء الحضاري. ثم تأتي بعده سائر فروع الحياة الثقافية من فن وأدب ودين. فإن الحضارات السابقة وفي مقدمتها ما ظهر منها على أرض مصر... قد جعلت الدين أساساً للبناء الحضاري – وإذا قلنا الدين فقد قلنا قواعد الأخلاق – ويأتي العلم بعد ذلك ليؤدي دوره في ذلك البناء.

فلما جاء الإسلام جعل العلم جزءاً من الدين ولم يعد بينهما تابع ومتبوع – فجزء من دين الإسلام لا يتجزأ أن يكون المسلم ذا علم بما حوله من ظواهر الكون – وهذا العلم يستهدف عبادة الله سبحانه بمعرفة خلقه – معرفة تمكن الإنسان من الإلمام بمعجزات هذا الخلق.

انظر إلى أول آية نزلت من القرآن العظيم: "اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم". انظر كيف تتابع فيها نوعان من القراءة... التي أصبحت فرضاً على كل مسلم:

فعلم: بخلق الله تعالى للإنسان أولاً.

وعلم: بما خطه قلم الإنسان ثانياً.

وكلتا القراءتين – عملية عقلية علمية – لكنهما إلى جانب كونهما "علماً" يقتضي من صاحبه إعمال العقل... فهما في الوقت نفسه "دين" يوجب على المتدين به واجباً مفروضاً.

تلك أدلة نتبين منها طبيعة الرؤية الإسلامية لحياة الإنسان...

أدلة على دمج الدين والعلم في موقف واحد... تنص مباشرة على إعمال المسلم لعقله – في تدبر خلق الله من حوله – فهي تبني الإنسان بالدين وبالعلم. وتبني الوجدان بالفن. وتبنى الحياة بالقيم.

- لعل أصدق مثال على اتحاد الدين والعلم والفن هي: العمارة الإسلامية – وليدة الإسلام – (المصرية أساساً) فقد نشأت وتطورت ونهضت في خدمة هذا الدين الحنيف فكانت تلك الصروح الشامخة البديعة من أعمال العمارة والعمران التي تركها الأجداد في كل مكان.

وانظر إلى القيمة العليا في كل من الدين والعلم والفن: إن العلم قد جاء باحثاً عن "الحق" أي التصوير الصادق لظواهر الكون. وذلك بكشفه عن قوانينها – ومصداق صدقه في ذلك الكشف هو أن تجيء القوانين العلمية دقيقة التطابق مع الظواهر – إلى الدرجة التي تمكن الإنسان من استخدام تلك الظواهر.

أما الدين فالقيمة العليا التي ينشدها – ويقيم لها قوائمها هي قيمة "الخير" بمعنى أن يضع القوانين الضابطة لسلوك الإنسان حتى يجيء ذلك السلوك على استقامة تنفع الدنيا وتزكي الآخرة.

وأما الفن فأصلابه وأوصاله قائمة على قيمة "الجمال" الهامة.

إن تلك القيم الثلاث: الحق والخير والجمال – فيما قال " د. زكي نجيب محمود" – لا تقوم إحداها إلا وهي مقرونة بشيء من أختيها. ثم إذا ثبت لنا كذلك أن تلك القيم تتجاوب مع فطرة الإنسان. أي أن الإنسان بطبيعته يحس بأن الحق أولى من الباطل. وأن الخير يعلو على الشر. وأن الجمال أجذب من القبح. أيقنا تماماً بأن تلك القيم الثلاث وإن تفردت كل منها بمعناها – إلا أنها تكون معاً كأضلاع المثلث – حتى وإن تفاوتت أطوالها في المواقف المختلفة.

- قد يبدو لنا أن الحق والخير والجمال: أسماء ثلاث على مسمى واحد. والذي يختلف في الحالات الثلاث هو وسيلة إدراكنا لذلك المسمى الواحد. فإذا أدركنا ظاهرة معينة "بالبصيرة" (وذلك في حالة الإيمان) أدركنا عنها ما هو "خير".وإذا عدنا فأدركناها هي نفسها "بالعقل" (وذلك في حالة العلم) أدركنا عنها ما هو "حق".

ثم إذا عدنا – مرة ثالثة – فأدركناها "بحاسة" من حواسنا لندرك عنها طريقة تشكيلها وأثره في إحداث حالة معينة محببة في نفوسنا ينشدها وجداننا تمتعنا وتسعدنا وتلبي حاجات نحبها ونطلبها. كان ذلك هو "الجمال".

وهكذا ترى كيف يوصلنا التأمل في القيم الثلاث الكبرى: الحق والخير والجمال (وهي التي تتفرع عنها كل ما يعرفه الإنسان من قيم) إلى ضم الكثرة التي نشاهدها – كثيرة – في الحياة والكائنات. حتى لتصبح أمامنا وجوداً واحداً موحداً تتكامل فيه تلك الكثرة – في كيان عضوي واحد – فكذلك لا يكون الإنسان بمعرفته إلا إذا توحدت تلك المعرفة في نسق واحد.

- ما يميز الفن عن العلم – إنما هو على وجه التحديد – هذا الدور الهام الذي تلعبه الحواس في دائرة الخبرة الجمالية – فضلاً عما في الفن من اعتماد على الخيال.

لقد سبق أن أشرت إلى الصلة الوثيقة بين الدين والفن:

فلقد نشأت الظاهرة الجمالية – أول ما نشأت – بين جدران أماكن العبادة... حيث ظهر فن العمارة أقدم الفنون جميعاً ثم ظهر فن النحت وفنون الجداريات..إلخ.

فكان الدين هو الظاهرة الكبرى التي عملت على ظهور الفنون وتطورها. ولم تلبث أن ظهرت مصنوعات الإنسان التي ابتكرت كل منها بناء على قدر من الحاجة.

إن تحديد معنى الحاجة – على حد تعبير "د. علي جمعة" – ومعنى الندرة ومعنى النسبية. مما يترتب عليه جعل علم الاقتصاد قيمياً (يحتاج إلى القيم) في حين أن الله سبحانه وتعالى في عليائه يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ويربط أفعالنا بالإيمان به. وإماطة الأذى عن طريق الناس خير... وقد يتعلق بالأفراد – وهو حينئذ من مكارم الأخلاق – ولكنه أيضاً قد يتعلق بالمفاهيم الإنسانية. وهو حينئذ من الواجبات التي تخلقت بها الحضارة الإسلامية. ولذلك لم يهلك المسلمون الحرث أبداً. ولم يقتلعوا الغابات ولم يقتلوا طائفة من الحيوان إلى حد الإبادة (كما حدث في تجارة العاج مع الأفيال) ولم يلوث المسلمون الكون من حولهم بالعوادم وبغاز الفريون حتى يتسبب ذلك في ثقب الأوزون. بل إنهم عاملوا الكون على أنه يسبح. وعلى أنه يسجد. وعلى أنه مخلوق من خلق الله. وعلى أن المسلم يسير في تياره معه فيسبح ويسجد لله.

وفي أول دراسة علمية في علم الاجتماع الجمالي (عام 2008) أوصت تلك الدراسة بأهمية الفن لتنمية المجتمع والبيئة... وبأن يكون الفن أحد الأدوات الهامة في خطط التنمية. وأن تعمل الدولة على الاستخدام الأمثل لبرامج التنمية والتربية الفنية. وعلى توجيه الاهتمام بأهمية الفنون في حياة الإنسان والمجتمع. وأن وظيفة الفن هي تنظيم العلاقة بين احتياجات الإنسان والمنتج الذي يجمع بين الجمال والمنفعة – من مصنوعات الإنسان – وتنمية البيئة والقدرة على الابتكار وتنمية الإدراك الجمالي. والفهم الواعي لأهمية الجمال في الحياة اليومية وتنمية السلوك والبعد الجمالي.

الحياة والكائنات والعمران:

" وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون".

هاتان الآيتان من القرآن الكريم (الذاريات-20و21) تدعوان للتأمل في آيات الأرض – الشاملة للحياة والكائنات – ففي هذه الآيات عظات وعبر للموقنين... وفي خلق أنفسكم دلالات على وحدانية صانعكم.

مما يوقظ البصيرة – التي تتجاوز الإحساس والإدراك لتغوص في أعماق سر الوعي – لتتحقق كوعي خالص ويقين كامل. فإن التعمق في الوعي بالحياة والكائنات والتأمل والتفكر والتدبر في خلق الله وملكوته مدخل لمعرفة الرب. ومعرفة النفس ومعرفة الحقيقة... فالله حاضر في الكون – حاضر في كل زمان ومكان – دون أن يكون مرئيًا في أي مكان. وهذا طريق من طرق التقرب إلى الله ومن مجده وجلاله وجماله.

قل ما شئت عن معجزات الخلق الإلهي لهذا الكون العظيم – بمن فيه وما فيه – فكل ما عساك مصادفته في رحابة الواسعة جدير بأن يستوقف النظر بما انطوي عليه من إعجاز... فالحياة مبتدية في الكائنات من أصغر نبتة تنبت من الأرض. صعوداً حتى ذروة الحياة متمثلة في الإنسان – الذي أراد له ربه بين سائر الأحياء تكريماً وتشريفاً – ففي الإنسان كل ما في الحياة النباتية والحيوانية من أصول حيوية ثم أضيف إليها قدرات أخرى. كل قدرة منها يبعث إعجاز خلقها على الذهول.

ونحن نشاهد الكائنات الحية وهي تنمو... إن كانت هذه حيوانية فهي تتوالد وتنجب صغاراً – تبدأ صغيرة ثم تكبر وتنمو بدورها – وتكرر العمليات الحيوية للجنس نفسه جيلاً بعد جيل (هي المعجزة عند من يتدبرها ملياً في روية وعلى مهل) وإن كانت الكائنات الحية نباتية فهي تورق وتزهر وتثمر. وقد تترك من الحبوب أضعافاً مضاعفة للحبة الواحدة التي بدأت منها – وتكرر كل حبة نفس العمليات التي بدأ بها النبات الواحد – وتبقى كلها في تطور دائم ومستمر. طبقاً لخطط محكمة دائمة.

ويترتب على كل هذا مسائل أخرى وخواص مميزة تتوافر في الكائن العضوي الحي – ووحدة عضوية تجعله وحدة واحدة متماسكة ومتكاملة وتجعل له شخصيته وتفرده – رغم انتمائه إلى فصيلة أو جنس لكل أفراده صفات متشابهة. كما تعطيه طابعه الخاص المميز وتخلع عليه شكله وجماله. (ذلك ما ذكره العلماء ممن وقفوا في صف الفكرة العضوية).

وسنرى فيما بعد أن "الشكل" ليس مطبقًا على الكائنات من الخارج.

بل هو: ينمو من الداخل... تدفعه قوة كامنة نسميها الحياة.

هي المعجزة. ترتبط بها وتنسب لها كل العمليات الحيوية... فللكائن الحي "قوى داخلية" تدفعه وتجعله ينمو إلى أن يكتمل. الشكل العضوي كامن. وأعضاء الكائن الحي تنمو مترابطة ومتكاملة مع بعضها فتتوصل إلى وجود (هكذا يجمع العلماء والفلاسفة الذين ناقشوا مواضيع الكائنات الحية والطبيعة والجمال).

وفي كل الكائنات لا توجد نماذج ثابتة لا تتغير لشكل ما... وإنما يوجد دائمًا قانون التكيف والملاءمة مع الوظيفة. وبما يناسب التعرض لظروف البيئة المحيطة وهذه القوى الكامنة هي التي تتسبب في تواجد الكائنات وتميز شكلها... وتخضع هذه العمليات كلها لقوانين الكون العامة – القوانين التي تضبط مسيره – بدءًا مما هو دون الذرة من جزئياتها فصاعدًا إلى المجرات وإعجازها.

- كل صغيرة في هذا الكون وكل كبيرة محكوم بقانون أو بمجموعة قوانين .

يكشف العلم ما يكشفه. وبمقدار ما يكشف نزداد إدراكًا لهذا الكون الهائل.

ونزداد إيمانًا بعظمة الخالق. الله عز وجل في عليائه.

ونحن حين نتأمل الأشياء فإننا نضفي عليها روحًا من صميم حياتنا.

وهكذا يحقق لنا التأمل ضربًا من التوافق بين المعرفة والوجدان... فيؤلف بين ما هو عام وما هو خاص – ويجمع بين ما هو كلي وما هو ذاتي – وحينما تستحيل ذاتية المتأمل إلى نظر خالص أو عيان محض. فهنالك قد يكون في وسعه أن ينفذ إلى ذلك العالم الإنساني الذي يفتحه أمامه العمل الفني.

والواقع أن كل مشكلة الإدراك الجمالي إنما تنحصر على وجه التحديد في أن المرء لا يتذوق العمل الفني إلا إذا كان (كما ذكر "مولر فرينفلس") متأملاً ومشاركًا في الوقت نفسه. فنحن نتأمل ونشارك دون أن تبلغ مشاركتنا حد التمام.

- إذا كان كثير من علماء الجمال – قديمًا وحديثًا – قد أقاموا ضربًا من التعارض بين الفن والحياة... فذلك لأنهم قد ارتأوا أن الجمال الفني ليس مجرد صدى للجمال الطبيعي.

إنما هو عمل بشري ينطوي على قيمة صناعية!

حقًا إن بين الفن والطبيعة ضربًا من التشابه – من حيث أن كل منهما لا يصنع إلا لغاية. فضلاً عن أن كلاً منهما إنما يسعى نحو تحقيق شيء حي ملائم – ولكن من المؤكد أن العمل الفني لا يمكن أن يكون هو الواقع عينه أو الطبيعة نفسها. هذا ما ذهب إليه جمهور العلماء.

openkanoi.com

- ليست مهمة الفنان استقراء الطبيعة – أو نسخ صور مكررة منها – أو التأمل الخالص للحياة فقط. بل لابد له من أن يحيل الإدراك إلى فعل.

بل إن واجبنا أن نقرر أن كل فن هو بالضرورة فعل.

لكني أزعم أن كل فن يجب أن يتسم بالجمال. وأن كل عمل فني تشكيلي لا يتصف بالجمال – في تقديري – ليس فناً جميلاً . لقد سبق أن أشرت في موضع سابق إلى أننا في مزاولتنا لمهنة العمارة الداخلية فإننا نصنع الجمال.

وهنا لابد للمصمم والفنان أن يبذل موهبته وجهوده لتحقيق – هذا الجمال المنشود الضروري – الذي يتكامل به أي عمل فني تشكيلي أياً كانت الأسباب والمبررات.

وفي كل الحالات لا يمكننا القول إن الفن ليس في الحياة في شيء. بل لابد لنا أن نعترف بأن في الجمال دائماً شيئاً من الحياة... كما أن الحياة في انسجام مع الطبيعة شرط لازم للبقاء.

ولا أحد ينكر جمال الطبيعة أو الإعجاب بها والاستمتاع بها.

والإنسان – قديما وحديثا – جزء من الطبيعة منسجم معها.

مسئول عن عمارة الأرض وعمرانها – كما هو مسئول بالضرورة عن الحفاظ على جمالها – الإنسان مسئول عن حراسة الجمال الكوني. كما هو مطالب بالتأمل في آيات الكون وجمال الكون... وبالتعمق في الوعي بالحياة والكائنات والعمران وإعمار الأرض. وفي ذلك اليقين بإعجاز الخالق سبحانه بديع السماوات والأرض.

وللجمال والطبيعة – كما للكون كله – منطق وصحة ونظام وضبط ... وللطبيعة مبادئها وقواعدها ونظمها وقوانينها.

وإن كان مؤرخو الفلسفة قد نسبوا إلى "أرسطو" أنه قال إن الفن محاكاة للطبيعة. فإن الحقيقة أن "أرسطو" كان يقول دائماً: إن من شأن الفن أن يصنع ما عجزت الطبيعة عن تحقيقه.

- ليس الفن كله مجرد محاكاة للطبيعة... ألسنا نجد فنوناً كاملة بأسرها لا تقوم على محاكاة الطبيعة – أو النقل منها – كفن العمارة وفن العمارة الداخلية – مثلاً – أو فن الموسيقى؟

ألم يقل " بيكاسو picasso .1881-1975" إن الطبيعة والفن لهما ظاهرتان مختلفتان تمام الاختلاف؟

بيد أننا لو نظرنا إلى الفنون التشكيلية بصفة خاصة لو جدنا أن أصحابها – كما لاحظ "د.زكريا إبراهيم" – يؤكدون في غالب الأحيان أنهم قد استمدوا أفكارهم من ملاحظة الطبيعة أو استقراء الواقع... لقد دأبوا على القول بأن الفنان هو ذلك المخلوق الذي يعرف كيف ينظر إلى الطبيعة.

وكل ما في الطبيعة – أو الوجود بصفة عامة – إنما يحمل طابعاً في نظر الفنان.

لأن نظرته الفاحصة النفاذة تخترق الأشياء فتنفذ إلى معانيها الكامنة.

الواقع أن الجمال كائن في الحياة والكائنات... ونحن نلتقي به على أشكال عديدة متنوعة في عالم الواقع – والجمال هو الواقع أيضاً – كما ذهبوا أيضاً إلى أنه ليس في الطبيعة ما هو دميم على الإطلاق (تلك حقيقة كاملة مؤكدة) ولعل هذا هو ما عناه "رينان 1823-1892 renan " حينما قال: إننا لا نجد في الطبيعة بأسرها أدنى خطأ في الرسم... فإذا به يقرر في موضع آخر: إن العالم جميل إلى أن تمسه يد الإنسان.

- هكذا نعود فنقول : إن الطبيعة تعطي الحياة شكلها... وطابعها العام.

وبمثل منطق الطبيعة وأسلوبها الخلاق في حل المسائل والنفاذ إلى معانيها – ونستجلي ما خفي من مدلولاتها – نستطيع أن نستخرج الكثير من الأفكار. وأن نبحث عن الفكرة التي تلد النتائج العاملة على استثمار الطبيعة وظواهرها. وأن نسلط الفكر على تلك الظواهر – لاستخراج قوانينها واستخلاص مبادئها ودروسها واختزالها وتبسيطها وتجريدها – ومنها ننمى إحساسنا بالحقيقة. ونتعلم الإحساس بالحتمية التي تجعل الأشياء تتواجد وتتخذ شكلها. وندرك أن الجمال هو الصلة بين الطبيعة والفن.

هذه المبادئ لا شك أن لها مكانها في العمارة عامة... وفي العمران. وفي العمارة الداخلية وفي التصميم وفي الفنون التشكيلية وفي الإبداع.

وتلك النظريات تتخذ مبادئها من الحياة والكائنات ومن الكون والإنسان.

وأول مبدأ أساسي هو أن يكون المصمم خلاقا كالطبيعة. كما أن عليه أن يدرك انسجام الإنسان والطبيعة.وكذلك تحقيق الصلة الوثيقة بين العمارة والطبيعة بحيث يندمج العمران مع البيئة المحيطة به. كما ينبغي استثمار المميزات الطبيعية لموقع البناء – فيكون المبنى جزءاً منها – يكاد ينمو من الأرض ويتكامل معها ويندمج ويتحد. وأن يستعمل في الإنشاء المواد المتاحة والخامات من نفس البيئة أو حتى من موقع البناء (وأساليب البناء) ذلك ما قرره علماء العمارة ومنظروها قديماً وحديثاً.

- أسجل هنا للتاريخ – عرفاناً لفضله ومواهبه وقيمته – هذه الحقائق عن شيخنا الجليل "حسن فتحي 1900-1989" المهندس المعماري ومخطط المدن المصري الكبير ومؤسس مدرسة العمران المصرية الحديثة... ومدرسة: "تكنولوجيا المعمار المتوافقة والمتكاملة" في رؤية شملت كشوف علوم البيئة والجغرافيا والتاريخ والاجتماع والنفس الجمعي والثقافة المركبة: (اللغة والعقائد والتكوينات الاجتماعية والتشكيل والسلوك والموسيقى) لبناء: (الموطن الإنساني) في توافق مع كل من بنية الإنسان النفسية والذهنية والسلوكية – ومع عناصر البيئة الطبيعية – والميراث الثقافي ومتطلبات التطور الحضاري للناس (أصحاب الموطن وسكانه) سعياً إلى استعادة التوافق بين الإنسان وبيئته (الطبيعية والاصطناعية. أي: البيئة بمعناها الجغرافي والبيئة بمعناها الحضري الاجتماعي التي يشيدها الإنسان ليسكن فيها ويعمل ويتواصل مع الآخرين أو يرفه عن نفسه).

تلك هي الرؤية التي تطورت عبر تطوير "حسن فتحي" لمفاهيمه في العمران وتخطيط المدن وفي الهندسة المعمارية (أو المواطن السكانية والحضرية) والتي منحته شهرته في مصر والعالم الإسلامي وفي الغرب والتي أصبح بها: "شيخ المعماريين في القرن العشرين" و" أفضل مهندسي عصره" وفيلسوف العمارة المتوافقة في عصرنا.

وفي رأيه أن المعمار – سواء كان للسكن أو للعمل أو للعبادة أو للترفيه – ينبغي أن يكون: متوافقاً مع بيئته... وفسر البيئة بأنها:

أولاً: "طبيعية من صنع الخالق سبحانه وتعالى" تمدنا بالمواد الأولية. والمناخ. والأشكال الأساسية التي تنطبع في أذهان الناس وتساهم في تشكيل تصوراتهم عن العالم.

ثانياً: البيئة "طبيعة اصطناعية" : نضيفها نحن بأنشطتنا المختلفة إلى "الطبيعة الأصلية": من عقائد وعادات إلى علاقات اجتماعية وأنماط من السلوك والعمل واللهو والنوم والأكل...إلخ. فنحولها إلى "موطن" في شكل قرى أو مدن...

ولكي يتوافق الإنسان مع بيئته الأصلية الطبيعية (التي صنعها الله جل جلاله) والتي نشأنا فيها. فلابد من أن يستخدم موادها الأولية (استخداماً مستنداً إلى العلم المتطور بحيث يحافظ على معالمها وخصائصها الرئيسية).

وعلى الإنسان أن يدرك الأسس لأصول العمارة المتوافقة.

إن المصمم يبدع من التصميمات ما يتلاءم مع تكوينه هو – العقائدي والنفسي والثقافي – ومع سلوكياته وأساليبه في ممارسة أنشطته وذلك حتى يتمكن من مواصلة الإبداع والعمران وعمارة الأرض وهم: أهم تكليف من اللّه – تعالى – للإنسان.

ولقد رأى "حسن فتحي" أن فرض أشكال وأنماط معمارية على أمم الشرق والجنوب كلاهما من أخطر عوامل تخريب البني الثقافية الاجتماعية الاقتصادية. وتعجيزها عن التطور الخلاق (ضرب مثالاً بعمائر الخرسانة والزجاج – في أجوائنا الحارة – التي تضاعف من تأثير الحرارة. وتساعد على تمزيق العلاقات الاجتماعية. ثم تحتاج إلى طاقة هائلة نبددها في التبريد – ثم في التسخين – وإلى إمكانيات ضخمة نبددها في معالجة الآثار الاجتماعية والنفسية والسلبية التي تتركها – عمارة غير متوافقة – على التكوين النفسي والخلقي والفكري للناس).

ولقد أصدر "حسن فتحي" عدة كتب أشهرها عن الأسس الفلسفية لتصوره المعماري والمدني أو الحضري وهو: عمارة الفقراء.

وله عدة أبحاث علمية أشهرها: أصول العمارة المتوافقة. وهو بحث متخصص يفصل فيه نظريته المعمارية والإنشائية.

تخرج شيخنا من "مدرسة المهندسخانة" كلية الهندسة بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) عام: 1925. ليعمل مهندساً بإدارة البلديات بوزارة الداخلية حتى عام: 1930. ثم ليعين كأول "معيد" مصري. وأول عضو مصري في هيئة التدريس بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة... ثم أوفدته الكلية في بعثة إلى باريس – فرنسا – ليدرس الدكتوراه. وهناك اكتشف توافق العمارة الغربية التقليدية مع كل من الموروث الثقافي السائد ومع متطلبات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والترفيهية. واكتشف أيضاً أن للعمارة الإسلامية (المصرية أساساً) تاريخها الخاص. فبدأ كشفه – التاريخي – للأصول الفنية للعمارة الإسلامية بدءاً من مواد البناء الأولية الطبيعية. إلى التصميم العام للمباني (المساكن ودور العبادة والقناطر والمباني العامة... إلخ). وصل "حسن فتحي" في كلية الفنون الجميلة – إلى درجة الأستاذية وصار رئيساً لقسم العمارة بها – ولكن هذا الأستاذ النادر – تعرض للأسف للاضطهاد في كليته وطلب إحالته إلى المعاش؟

obeikandi.com

مصنوعات الإنسان:

- إذا وجهنا اهتمامنا إلى الأشياء التي يصنعها الإنسان (man-made) وهنا نستشهد بقول "د. عرفان سامي": لواجهتنا مباشرة المشكلة الرئيسية وهي الفروق الأساسية الجوهرية بينها وبين الكائنات العضوية:

فمصنوعات الإنسان أشياء وجماد و"غير حية". وليس فيها روح ولا تنمو. وهي تتخذ من الأشكال ما يفرضها عليها الصانع – بقوى مطبقة ومفروضة عليها. وكله عن إرادة ونية وبقصد الوصول إلى غرض خاص – ثم يضيف: لكنا نجد في مصنوعات الإنسان صفات مشتركة مع صفات هذه الكائنات – أو على الأقل نجد ما يناظرها ويكون بديلاً لها – فإذا لم يكن للجماد من مصنوعات الإنسان خاصية النمو العضوي لتكوين القوة الدافعة وراء اتخاذه شكلاً معيناً. فإن الخواص الكامنة في طبيعة المادة المصنوع منها. وفي الأدوات المستعملة وأساليب استعمالها في صناعته وتشكيله. "قوى" تدفع الصانع وتوجهه. أو تحده وتقيده. فكأن الشكل قد نتج عن عمليات ليست للصانع الحرية التامة فيها. فيمكن القول إذاً بأن الجماد من مصنوعات الإنسان "ينمو" من تلك القوى الكامنة التي يعمل "من الداخل من خلف شكله الظاهري المرئي". ويلزم أن تتصف مصنوعات الإنسان بصفات التماسك والترابط والنظام والوحدة – بين أجزائها وفي شكلها العام - حتى تصير أجزاؤها الكثيرة المتنوعة شيئاً واحداً صحيحاً. له فرديته وشخصيته المميزة. وهذا يبين أن الشيء المصنوع يكتسب "معنى" لم يكن له قبل أن تنتظم أجزاؤه وتتحد وتتكامل:

كالجملة: التي يصبح لها معنى أكثر مما يتوفر في مجموع مفرداتها.

وكالمبنى: الذي تصبح له قيمة أكبر مما لمجموع المواد الداخلة في إنشائه

بدليل أنه لو اختل ترتيب الألفاظ في الجملة لفقدت معناها...

ولو تكومت مواد البناء على قطعة أرض لما كان لها قيمة المبنى...

- هكذا نكتشف وجود "شيء أكثر" في مصنوعات الإنسان. هكذا يعلن "د.عرفان سامي".

فالصانع ينتج المصنوعات ولكن المصمم المبدع يخلق شيئاً جميلاً نافعاً. ذلك أن "الخلق" أو الابتكار ليست مجرد صنع وإنتاج لأشياء تختلف عن المعهود لمجرد الرغبة في عمل مختلف.

بل إن عملية الخلق عمل خارق (يأتي إلى الوجود بقيم ومعان لم تكن) وتحتاج لفن وعلم وخبرة ومهارة وخيال واستضواء وقدرة.

obeikandl.com

• حتى مصنوعات الإنسان ومنتجات الصناعة تتطور وتزداد إبداعاً. كلما ازداد الإنسان علماً ومعرفة وخبرة وحنكة – فتتحسن شكلاً وتزداد جمالاً – وضبطاً وإتقاناً وفائدة وجودة وكفاءة.

ومع التعرض لظروف البيئة – تثبت تكيفها وملاءمتها وكفاءتها – فتسحر العين وترضى العقل... لأن هناك جمال ومنطق وصحة. ينبع من المشاعر العميقة للإنسان وبراعته واكتشافاته وإبداعه.

والإلهام هو العامل البادئ في عمليات الخلق أو الابتكار أو الإبداع. هو البداية الأساسية في كل الأعمال الفنية الخلاقة. وهو نوع من الإحساس المرهف واستضواء داخلي للمبدع. لا يعمل بالطلب ولا ينتقل بالتعليم أو التلقين إنما هو موهبة فائقة.

• عندما يصبح للإبداع دوره في مصنوعات الإنسان ومنتجات الصناعة. هنا يمكن أن يظهر في حياة الناس وسلوكياتهم حرص على قيمة عظيمة هي: الجمال. إن جماليات السلوك والفكر والرؤى جزء أساسي من معزوفة متكاملة بين البشر والمجتمع والتاريخ والإبداع... والجمال – في تقديري – صفة حتمية" من صفات الإبداع. والإبداع ملازم للإنتاج وشرط جوهري من شروط الحضارة. وأهم مفاتيحها على الإطلاق.

والحضارة تشمل العمران والبيئة والتنسيق الحضاري وكافة مجالات التخطيط العمراني وتخطيط الأقاليم والمدن والقرى. أيضاً مجموعات المباني والأحياء. كما تشمل كذلك نظم الحياة والمعيشة والعمل والترفيه.

والخيال هبة مقدسة من الله تعالى للإنسان ومظهر من مظاهر الحياة.

الخيال هو الصلة الوثيقة بين الماضي والحاضر والمستقبل. والإنسان صاحب أحلام ورؤى. ومقدرة على التطلع وتخطي حدود المكان والزمان – تخطياً ذهنياً معنوياً- دون تقيد بواقع. وهذه هي: القدرة على التخيل.

وهي واحدة من الصفات الرفيعة العليا في الإنسان.

وهنا نستشهد مرة أخرى بقول "د. زكريا إبراهيم" بأن الخيال وحده لا يكون جوهر الفن ... فليس الفن مجرد حلم أو خيال. إنما هو – أيضاً خلق وصناعة. أو إنتاج ومهارة. ومعنى هذا بعبارة أخرى أنه لا يمكن أن يكون هناك فن إن لم تكن هناك قدرة على تنظيم الخيال...

تنظيماً يبعثه في جسم معين. ولابد من أن يقترن الفن بنشاط إبداعي – تركيبي – يكون هو الأصل في كل عمل فني.

opalkanani.com